(SUJHUS) مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (ISSN: 2959-5436)
عدد خاص بوقائع المؤتمر العلمي الدولي الثالث للعلوم الانسانية والتربوية والنفسية الذي اقامته جامعة سومر للفترة
من 24-25 نيسان 2024 /القسم الثالث/ محور التاريخ والجغرافية, الصفحات 63-79

تطوّر الفكر القومي العربي خلال المدة 1847-1970م

((دراسة تأريخية))

أ.م.د. جاسم محمد إبراهيم اليساري[1]*

[1] وزارة التربية, مديرية تربية كربلاء المقدسة, العراق

الملخص

تبين لنا فشل المشروع القومي العربي الذي أراده منظريه من أن يكون موحِداً للشعوب العربية على غرار المشاريع القومية الغربية التي اجتاحت العالم منذ القرن التاسع عشر، لكن الوحدويين العربيين لم يدركوا صعوبة تطبيق نظرية أَوْ فكرة مقتبسة من الدول الغربية التي يختلف وضعها اختلافاً جذرياً عن الواقع العربي من مختلف النواحي الاقتصاديّة, والاجتماعيّة, والسياسيّة, والدينية, بل حتّى النفسيّةِ مِنْها, وقد يكون هذا الاقتباس غير المدروس مِنْ أهمّ الأَسْباب التي أَدَّتْ إلى فشل المشروع القومي العربي, إضافةً إلى أسباب أخرى داخلية.

ورغم أن بعض الدول العربية وبالتحديد (مصر، العراق، سوريا) قد تولّى السلطة فيها قيادات تؤمن بالقومية العربية, إلّا إنها فشلت في التواصل مع شعوبها, بل واستبدوا بالحكم استبداداً فاق ما كان موجود سابقاً أيام الاحتلال الأجنبي, وهو ما دفع هذه الشعوب إلى الابتعاد عن هذه القيادات وأفكارها, والتي بدأت ترفع شعارات بعيدة عن الواقع ولا تجد صدىً لها إلّا في فئة قليلة مرتبطة بالسلطة ومصالحها.

الكلمات المفتاحية: تطور, فكر, قومي, عربي, الناصري.

The development of Arab nationalist thought during the period (1847-1970 AD) ((Historical study))

Asst. Professor Dr. Jassim Mohammed Ibrahim Al-Yasari[1]*

[1]Ministry of Education, Karbala Education Directorate, Iraq

Abstract:

It becomes clear that failure of the Arab national project, which its theorists wanted to unite the Arab nations in which, similar to the Western national projects that swept the world since the nineteenth century. In all economic, social, political, religious, and even psychological aspects, and this approach which is quoted from western nations may be one of the most important reasons that led to the failure of the Arab national project, in addition to the internal reasons .

Although some Arab countries, specifically (Egypt, Iraq, Syria) had leaders who believed in Arab nationalism have failed to communicate with their citizen, and they ruled with a tyranny as previously during the occupation period. this leads the nations to avoid such as this leaders and theme ideas, which started raise slogans far away from reality and not find any echo gust in a few segment with linked to authority and interests.

Keywords: development, thought, national, Arab, Nasserist.

*** Email address: jasimalyasary63@gmail.com**

المقدمة:

لا ريب أن تطور الفكر القومي العربي للمدة (1847-1970)يعد اهم الحركات الفكرية التي ظهرت في تلك الفترة

ثانياً/ منهج البحث

سنتبع في دراستنا للموضوع المنهج التاريخي (الاسترادادي) الذي يستهدف ترجمة العلاقات والمفاهيم التي يتناولها حركة الفكر القومي العربي خلال الفترة(1847-1970) حيث يعد بمثابة استرجاع للأحداث المؤرخة الماضية

ثالثاً/ خطة البحث

قُسم البحث الى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة تناول المبحث الأول (ظهور الفكر القوميّ العربيّ في القرن التاسع عشر وتطوّره قُبيل الحرب العالميّة الأُولى) اما المبحث الثاني (الفكر القوميّ العربيّ ما بين الحربيْن العالميتيْن الأولى والثانية 1914- 1939م) أما المبحث الثالث (منهج الفكر الناصري وأثره).

تمهيد:

لقد ظلت كلمة القومية عبر القرون الطوال مشحونة بمختلف الانفعالات محملة بشتى العواطف والأحاسيس ؛ لأنها ظلت مرادفة لكلمة "الأمة", ومن ثَم فإنّ مفهوم القومية مر بالتحولات نفسها التي مر بها مفهوم الأمة منذ أن بدأ الإنسان السياسي يفكر في إعطاء الأسماء لأشكال المجتمع التي يلحظها أمامه وتحديد السمات السياسية في كل من هذه الأشكال [1].

والقومية "Nationalism" كلمة مأخوذة من كلمة "Nation " التي تعني الوطن أو الشَّعب الذي يسكن في حدود هذا الوطن فمدلولها اللغوي لا يتعدى هذين المعنيين أما تاريخ مبدأ القوْميّات وظُهورِ كلمة القوميّة فِي العالم فيظهر أنَّهُ بدأ في أواخر القرن 18 وأوائل القرن 19 الميلاديْن، فالقومية كلمة حديثة أخذت من الغرب واقتبست منهم[2].

وفي العصور الوسطى كان مفهوم القومية وثيق العلاقة بمسألة الولاء السياسي , ولم يكن الإنكليز أو الفرنسيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ينتمون إلى قوميات متميزة , بل إنهم جميعاً رعايا لهذا الحاكم أو ذلك الإمبراطور، ومن ثم فإن الإنكليزي أو الفرنسي مثلاً، إذا أنبسط عليهما سلطان حاكم واحد أصبحا وكأنهما ينتسبان إلى أمة واحدة, وإلى قومية واحدة و؛ السبب أن القانون كان وقت ذاك هو العامل الأساسي في تكوين الأمة، فمع امتداد النفوذ السياسي تمتد الرقعة التي يحكمها القانون الواحد وتعيين بالتالي حدود الأمة[3].

لكن هذه النظرة قد تغيرت في القرن التاسع عشر حيث نظر إلى القومية على أنها نتاج العوامل اللغوية والثقافية, وليست بنت القانون أو السلطان كما كان يظن سابقاً ، فلم تعد القومية حالة تصاحب نوع الولاء السياسي بل أصبحت كياناً مستقلاً بذاته يتحقق بتحقق الوحدة في الفكر واللغة والأمل في من يتعايشون على أرض واحدة, ولما كان فرص تحقيق مثل هذه الوحدة تتعاظم بطبيعة الحال كلما صغر حجم الرقعة الأرضية فإن المفهوم الجديد أدى إلى تغذية القوميات الصغيرة بحيث أصبحت عوامل هدم في الكيانات السياسية الشامخة[4].

ولمّا انتصف القرن التاسع عشر ظهر تفسيران لفكرة القومية الأول وهو نظرية المفكرين الفرنسيين وهي "القومية الواعية", والثانية نظريّة المفكّرين الألمان وهي "القومية اللاواعية"، وهاتانِ النظريّتانِ ليستا نتاج اتفاق أوْ تصادُف فحسب, بل كانتا تمثّلان تعبيريْن لتاريخيْن متناقضيْن في كِلا البلديْن "فرنسا وألمانيا"[5].

وترجع النظريّة الفرنسيّة في أصلها إلى الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" في مؤلّفِه "العقد الاجتماعي" الذي يرى فيه أنّ المجتمع يقوم على أساس ارتباط المواطنين، ثم وسعت هذه النظريّة نتيجة آراء وأفكار خلاصتها احترام شخص الإنسان واستقلاله وعدم فرض إرادة خارجية عليه, أو القيام بالاعتداء على حق الآخرين, ووفق هذه النظرية فإنّ الدولة هي الكيان السياسي للأمة, في حين جاءت نظرية القومية اللاواعية لتلخّص لنا بأنه "لمعرفة انتماء شعب لقومية معينة يكفي الرجوع إلى الإمارات الخارجية وملاحظة ما إذا كان هذا الشعب يبدي إمارات معينة موجودة عند شعب آخر، عندئذ يمكن أن يستنتج بأن هذين الشعبين ينتميان إلى قومية واحدة وأهم هذه الأمارات وحدة اللغة، وترجع أصول هذه النظرية إلى الفيلسوف الألماني "هردر" الذي يرى أن اللغة هي روح الشعب، ويعتبرها خير معبر عن فكره ومزاجه وحساسيته وأصالته"[6].

أما مفهوم القومية عند العروبيين: فهي رابطة تربط شعوباً تحتل رقعة الأرض التي تمتّد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وتجمع بينهما أواصر مشتركَة, مثل "اللغة مشتركة، والمصالح مشتركة، والتراث الروحي المشترك، والماضي المجيد المشترك، والحاضر الأليم المشترك", وتمتاز عن القوميات الأخرى بعلو مكانة القيم الروحية في تكوينها؛ ذلك لأنَّ الأديانَ السماويّة السائدةَ اليوم "اليهودية، المسيحية، الإسلام" نزلت في بقاعِهِ, ولعل ذلك لحكمة خاصة وهي أن رقعته الجغرافية تكاد تتوسط الكرة الأرضية فأوسط مكان لإشعاع القيم الروحية هو هذا الوطن العربي، وبالفعل أمتد هذا الإشعاع من أراضينا إلى سائر أقطار الأرض[7].

المبحث الأول

ظهور الفكر القوميّ العربيّ في القرن التاسع عشر وتطوّره قُبيل الحرب العالميّة الأُولى

مرّت القوميّة العربيّة خلال مرحلة النشوء والتكون بعدة أطوار, حيث يبتدئ الطور الأول بالاحتلال الفرنسي للجزائر 1830, والاحتلال البريطاني لمصر 1881م, فقد أثار الاحتلال الأوربي ردود فعل ذات صفة إسلامية عربية, والحقيقة أنه إذا استثنينا كتابات نجيب عازوري, فلا نجد كاتب أبرزَ فكرة القومية العربية بشكل علمي ومنهجي كما فعل, وقد انقسمت هذه الأفكار إلى تيارين، تيار علماني[8] قادهُ مسيحيون عرب أمثال بطرس البستاني 1819- 1893م، وناصيف اليازرجي 1800- 1878 اللذان قاما بالاشتراك مع نصارى أمريكان بتأسيس جمعية الآداب والعلم في عام 1847 في الشام، وضمت هذه الجمعية بريطاني واحد هو "ونستون تشرشل" رئيس وزراء بريطانيا إبّان الحربِ العالميةِ الثانيةِ 1939- 1945م، ويَعد أغلب المؤرخين تأسيس هذه الجمعية بمثابة ولادة للحركةِ القوميّةِ العربيّةِ في ظلِّ جمعيات أمريكية[9].

هذه الجمعيّة ومن خلال كتابات البستاني واليازجي ساهمتْ بأحياء الثقافة العربية كمدخل لتأكيد وجود الأمة العربية وهويتها ، وقد أشتهر اليازجي بالأسلوب الأدبي وقد تبنت هذه الجمعية تدريس طلابها الدروس العلمية باللغة العربية, كما ألّف اليازجي عدداً من كتب المنطق والبلاغة والعروض والنحو, فكان لهذه الأعمال أثر في إحياء اللغة العربية واعتزاز العرب بماضيهم وثقافتهم[10].

أما اسهامات البستاني فقد تجلت بتأليفه معجم للغة العربية طبع سنة 1870م في مجلدين تحت عنوان "محيط المحيط", وأثره الثاني المهم, وهو "دائرة المعارف العربية" التي تأسست في عام(1876م) والتي ضمت قدراً كبيراً من المعلومات المستقاة من المصادر العربية الأدبية والتاريخية، وفي أثناء الفتنة الطائفية التي حدثت في لبنان 1860 والتي أثارت مشاعر الحقد الديني بين المسلمين والمسيحيين, سعا البستاني إلى تخفيف حدتها بإصداره صحيفة "نفير سوريا" التي تأسست في عام(1860م) حيث دعا إلى الاستنارة العقلية والتي من خلالها يتم القضاء على التعصب ويحل محله المثل العليا المشتركة بين الدينيين وهو ما حمل في طياته نواة الفكرة القومية [11].

أما التيار الثاني فهو ديني إسلامي يدعو إما إلى أعادة الخلافة الإسلامية إلى العرب لأنهم أحق بها من الأتراك, وظهر هذا الاتجاه واضحاً لدى كتابات عبدالرّحمن الكواكبيّ 1854-1902 في مؤلّفِهِ "أمُّ القُرى", وقد دعا فيه إلى تأسيس إمبراطورية إسلامية يترأسها العرب عاصمتها مكة، أما الاتجاه الثاني فمثّلهُ جمال الدين القاسمي الذي دعا إلى أمة عربية إسلامية [12].

وبرز في هذا الطور "إبراهيم اليازجي 1847- 1906" وهو ابن ناصيف اليازجي الذي اشتهر كأديب وشاعر ثائر وناقد اجتماعي, وقد اشتهر بقصيدته التي دعا فيها العرب إلى اليقظة القومية, قائلاً:

تنبَّهـــــــوا واسْتَفيقـــوا أيهـــــا العـــَرَبُ فَقَد طَمَى الخَطبُ حتّى غاصَتْ الركب[13]

وفي مرحلة متأخرة برز كتّاب أمثال شكيب أرسلان 1869- 1946الذي أصدر في سويسرا مجلة "الأمة العربية", وصديقه محمد رشيد رضا 1865- 1935م الذي كان ذا اتجاه إسلامي, غير أنه كشكيب أرسلان كان يفكر بالإسلام العربي, وكان ينظر إلى المسلمين الآخرين "كتلامذة العرب", كما كان يؤمن بإمكان التوفيق بين القومية العربية والوحدة الإسلامية توفيقاً يستحيل في نظره في غيرهما من القوميات عبر رشيد رضا عن ذلك بقوله : "فإسلامي مقارن في التاريخ لعروبتي... قلت: إنني عربي إسلامي، فأنا أخ في الدين لألوف الألوف من المسلمين العرب وغير العرب وأخ في الجنس لألوف الألوف من العرب المسلمين وغير المسلمين" [14].

ويعد "نجيب عازوري" من أوائل المفكرين العرب الذين دعوا إلى بناء أمة عربية ودولة عربية على أساس حديث علماني قومي , وكان نجيب قد تربى تربية فرنسية , وهو سوري من طائفة الروم الكاثوليك وأسّس في باريس في عام 1904 جمعية أو حركة باسم "عصبة أو جامعة الوطن العربي" انضم إليها بعض المنفيين العرب في باريس , وهدفها تحرير بلاد الشام والعراق من السيطرة التركية , وقد أصدر مجلة شهرية بالفرنسية بعنوان "الاستقلال العربي" في عام (1907م) , وكان شعارها "الأقطار العربية للعرب"، وعازوري يرى أن حدود الأمة العربية تشمل جميع البلدان الناطقة بالضاد في آسيا دون بلدان مصر وشمالي أفريقيا "المغرب العربي"، وهو في هذا تجنّبَ إثارة فرنسا وبريطانيا، ورسم عازوري الخطوط الكبرى لنظام الحكم في الدولة العربية حيث تصورها سلطنة ذات نظام حكم نيابي دستوري وليبرالي، يترأسها سلطان عربي مسلم على أن يحترم استقلال لبنان ونجد واليمن[15]. والتطور المهم في هذا الطور هو تحول الحركة العربية من الطور الأدبي الرومانتيكي إلى طور العمل السياسي ممثلة في "جمعية بيروت"[16] السِريّة الّتي ألّفها في سنة 1875م خمسةٌ من شبان الكلية البروتستانتية، وقامت بأول عمل ثوري عربي في هذه المدة عن طريق توزيعها لمنشورات سِرّية تضمنت مساوئ الحكم التركي, ودعت بشكل غامض إلى قيام نظام ذاتي لسوريا ولبنان فقط [17].

وأبرز ملامح هذا الطور هو دور المسيحيين العرب في إثارة الوعي القومي العربي, وهو أمر طبيعي ؛ لأن الحركة القومية هي بمثابة قطب معاد للحركة الإسلامية التي تستبعد العناصر غير الإسلامية, كما أن المسحيين العرب تمتعوا بحماية فرنسا التقليدية وكانت لديهم إمكانات النمو الاقتصادي في مجال التجارة, فلعبوا دور الوسيط بن الغرب من ناحية والعالم العربي من ناحية أخرى، وأتاح لهم هذا الوضع أن يتأثروا بالحضارة الغربية والفكر الغربي أكثر من المسلمين, إضافةً إلى أنّ الحركة العربية وكغيرها من الحركات القوميّة أو الشرقيّة قد تأثّرتْ بالأدب والحركة الرومانتيكية الأدبية بصفة عامة في شكل إحياء اللغة العربية وآدابها القديمة, وبَعْثُ ذلك المجد الكبير من التراث العربي, وهذا واضح في تاريخ البستاني[18].

أما الطور الثاني في مرحلة النشوء فقد عكسته النزعات الإصلاحية التي أخذت تتصاعد تحت وطأة الهزائم التي تكبدها العثمانيون في البلقان وشرق المتوسط, فقد هلع العرب من سكان الولايات العثمانيّة بسبب إخفاق العثمانيّين في صدّ الاعتداءات الأوربية على الأراضي العربية, وكان الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب عام 1912 الشرارة التي فجّرت استياء العرب وكأنه برميل بارود, فقد أدى إلى فقدان الثقة بالحكومة المركزية على صيانة الأراضي العربية وهو السبب الكامن وراء نشوء حركة اللامركزية وهي حركة تدعو إلى إنشاء مواقع قوة محلية, إذْ أكدت على وجوب تمييز الكتلة العربية الإسلامية عن غيرها من الشعوب المنضوية تحت الإمبراطوريّة العثمانية, ولكن في حدود ارتباطها رمزياً بالباب العالي[19].

وقد تميز هذا الطور ببروز الوفاق مع الحركة القومية التركية, فالحركة التركية كانت موجّهة ضدّ استبداد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909م), ذلك الاستبداد الذي كان ينعكس أيضاً على الولايات العربية بصفة خاصة ؛ ولذلك كان من الطبيعي ترحيب الدوائر العربية بكل حركة موجهة ضد استبداد عبد الحميد, وفي سبيل إقامة نظام دستوري لأنّ هذا لا بدّ أن يكون له أثره في الولايات العربية, وقد قوبل إعلان الدستور في 1908م بحماس بالغ في المراكز العربية الهامة, ففي طرابلس الغرب مثلاً أقيمت صلاة شكر من العرب والأتراك, كما لعب العرب دوراً في حركة عزل عبد الحميد 1909م أثر انقلابه الرجعي, فمحمود شوكت -شقيق حكمت سليمان رئيس وزراء العراق 1936- 1937م- كان على رأس الجيش الذي دخل القسطنطينية وعزل عبد الحميد[20].

وبعد إعلان الدستور افتتحت أول جمعية عربية في عهد الاتحاديين باسم "جمعية الإخاء العربي العثماني" وذلك في 2 أيلول 1908 وكانت أهم أهداف الجمعية المحافظة على الدستور وتوحيد جميع العناصر في الولاء للسلطان وتحسين أوضاع المقاطعات العربية على أساس المساواة الحقيقة مع الأجناس الأخرى في الدولة، ونشر التعليم باللغة العربية وتنمية شعور العرب بالحفاظ على عاداتهم العربيّة واتّباعها[21].

ولكنْ وبعد إجراء الانتخابات في الدولة العثمانية عام(1877م) انتهى ما أُطلق عليْه بـ "شهر العسل العربي– التركي", حيث أفضت هذه الانتخابات عن اكتساح الأتراك في الانتخابات على الرغم من تفوق العنصر العربي بنسبة 2/3، وقد جاء هذا التفوق بسبب طريقة الانتخابات التي أدارها الاتحاديون بحيث تضمن لهم فوز أغلب مرشحيهم, إذ فاز الأتراك بـ(150) مقعداً, مقابل 60 مقعداً للعرب، أما مجلس الأعيان الذي يعين السلطان أعضائه فقد بلغ عدد الأعضاء العرب ثلاثة فقط من مجموع أربعين عضواً، وبعد فشل الانقلاب الذي قادَهُ عبد الحميد, وتنصيب السلطان محمد الخامس, استبدَّ الاتحاديون بالسلطة وكانت أول مظاهر هذا الاستبداد هو حلّ جميع الجمعيات التي لا تنتمي للعنصر التركي, وكان من بينها جمعية الإخاء العربي – العثماني[22].

ومع سياسة الاتحاديين هذه يبتدئ الطور الأخير للحركة العربية القومية والتي جاءت كتحد للجامعة الطورانية التي تبناها رجال تركيا الفتاة، والحقيقة أن الاتحاديين بتبنيهم هذه العقيدة إنما كانوا يتخبطون بتفكير متناقض؛ لأن "الطورانية بمثلها الأعلى في تمجيد القومية التركية، وتشديدها على قرابة الأتراك العثمانيين الذي يهدف إلى توحيد عناصر الإمبراطورية المختلفة في أمة واحدة على قاعدة المساواة بين الجميع"، وكان من بين آثار سياسة التتريك، أن تنبّهَ العرب بطبيعة الحال إلى الخطر المحدق بهم ودفعتهم إلى المعارضة الفعالة جهرة وخفياً معاً[23]. وتعدّ جمعية "المنتدى الأدبي" أول جمعية تشكلت بعد سياسة التتريك هذه والتي ظهرت في صيف 1909 لتكون مقرّاً يلتقي فيه العرب الوافدون إلى العاصمة اسطنبول مع الموظفين والنواب والأدباء والطلاب العرب المقيمين في العاصمة, وسمح الاتحاديون بنشاط هذه الجمعية في البداية؛ لأن أهدافها لم تكن سياسية علنية، وقد كانت مساهمة هذه الجمعية في الحركة العربية تتمثل في توضيح الأفكار والآراء وتصفيتها ومن ثم تقوية دعوتها وتوسيع مداها أكثر مما كانت تتمثل في تزويدها بعوامل جديدة لحياتها[24].

ومن أهمّ الجمعيات التي ظهرت في هذه المدة ولعبت دوراً كبيراً في الحركة العربية قُبيل الحرب العالمية الأولى: "لجنة الإصلاح" والتي أُنشئت في بيروت عام 1912 إذْ كان بشارة الخوري هو أحد مؤسسيها وكانت تهدف إلى الحصول على الاستقلال الذاتي للدول العربية داخل أطار الدولة العثمانية، ولقد قامت لجنة الإصلاح في منتصف فبراير من سنة 1913 بنشر برنامجها الذي لقيَ تأييداً شعبياً كبيراً في الولايات السورية والعراقية، وعقدت اجتماعاتها في عكا ودمشق وحلب وبغداد, ولكن الدولة العثمانية أمرت بإلغائها في نفس السنة, كما أغلقت الصحف المعبرة عنها واعتقلت عديد من أعضائها مما أدى إلى قيام موجة من التعصب والغضب الشعبي تجاه السلطة العثمانية, مما اضطرَّها إلى الإفراج عن كثير من مُعتقلي هذه الجمعية[25].

ومِنْ أهمّ الجمعيات السرية الّتي تشكلت في عهد الاتحاديين والتي لعبت دوراً كبيراً في التخطيط للثورة العربية الكبرى سنة 1916 فهي "جمعية العربية الفتاة" التي تأسّست في باريس في عام 1911, ولم يكن لأي جمعية ما كان لهذه الجمعية من أثر فعال في الحركة العربية, وقد شكّلها سبعة من المسلمين العرب, وهم كلٌّ من: "عوني عبد الهادي, وجميل مردم, ومحمد المحمصاني, ورستم حيدر, وتوفيق الناطور, ورفيق التميمي, وعبد الغني العريسي", وقد دعت هذه الجمعية إلى استقلال البلاد العربية وتحريرها من الحكم التركي والأجنبي، وكان هذا بمثابة تقدُّم ملحوظ بالنسبة للبرامج السابقة التي تدعو إلى الحكم الذاتي داخل إطار الدولة، وقد ظلت هذه الجمعية مدة عامين في باريس ثم عاد معظم أعضائها إلى الشرق العربي وأصبحت بيروت مقرّاً لها[26].

كما ساهمَ بعض الضبّاط العرب المنتمين للجيش العثماني بالحركة الثورية العربية وذلك من خلال قيامهم بتشكيل الجمعيات, ومنها الجمعية القحطانية التي تأسست في عام 1908م ومؤسسو هذه الجمعية هم خليل حماده المصري, وعبد الكريم الخليل , وسليم الجزائري , وحمدان الصباحين ؛ وكان هدف الجمعية هو تحويل الإمبراطوريّة العثمانيّة -بجناحيها العربي والتركي- إلى إمبراطورية ثنائية كإمبراطورية النمسا والمجر, وبذلك تقوم دولة عربية موحدة, لها حكومتها المحلية برلمانها ولغتها الرسمية داخل الإمبراطوريّة العثمانيّة[27].

ومن الضباط العرب الذين كان لهم دور متميز في الحركة العربية هو "عزيز علي المصري" الذي أسّس جمعية العهد في تشرين الأول 1913 والتي اقتصرت عضويتها على العسكريين فقط, وقد ساهم فيها العنصر العراقي بشكل متميز نظراً لكثرة العراقيين (28) في الجيش العثماني, وقد افتتحت فروع لهذه الجمعية في الموصل وبغداد, وأصبحت بالنسبة للعسكر

الضباط كمَثّل جمعية "العربية الفتاة" بالنسبة للمدنيين, ولم تعلم كل من الجمعيتين بوجود الأخرى إلّا في سنة 1915 فحدث اتصال بينهما وساهما بإيقاد الثورة العربية الكبرى[29].

وتعد جمعية "اللامركزية الإدارية العثمانية" التي أنشئت في القاهرة أواخر 1912م، قد أسسها عدد من النخبة العربية ذوات المكانة المرموقة، أبرزهم محمد رشيد رضا , ورفيق العظم, وحافظ السعيد من يافا , وعلي النشاشيبي من القدس. أول عمل منظّم تخوضه الحركة العربية في تاريخها, إذ لم تمضِ سنة واحدة حتى أُصبحت هذه الجمعية أو الحزب أفضل مَن يمثل أهداف العرب وأمانيهم من حيث الدقة والتنظيم, وكانت أهداف هذه الجمعية ذات شقين: أولهما أن تبين للحكام في إسطنبول مدى الحاجة إلى اللامركزية الإدارية في الدولة, وثانيهما أن تعبّئ الرأي العام العربي لتأييد اللامركزية[30].

وقد وحدت هذه الجمعيات جهودها لعقد المؤتمر العربي الأول في باريس, وتم اختيار هذه المدينة لأنّ الدولة العثمانية لا تستطيع التأثير عليه، وفعلاً فقد انعقد هذا المؤتمر في 18 حزيران 1913 وكانت عضوية المؤتمر مناصفة بين المسلمين والمسيحيين, وقد ترأس جلسات المؤتمر عبد الحميد الزهراوي، أما العراق فقد مثّلهُ توفيق السويدي ، وقد عقد المؤتمر أربع جلسات في ستة أيام ألقيت فيه خطابات سياسية تركزت على القومية العربية وأهدافها، واتخذ المؤتمر قرارات تدور كلها حول ضرورة تطبيق اللامركزية في الولايات العربية[31].

وقد حاول الاتحاديون احتواء هذا المؤتمر باتباعهم سياسة الإغراء بالمناصب لزعماء المؤتمر وفي مقدمتهم رئيس المؤتمر الذي قبل بهذا فأصبح عضواً في مجلس الأعيان, وهكذا فشل مؤتمر باريس في تحقيق هدفه، وقُبيل الحرب العالمية الأولى بدأت موجة الشعور تسير نحو اليأس والقنوط من التفاهم مع الأتراك وإقناعهم بأحقية العرب في مطالبهم المتواضعة ومن العمل معهم في إطار الوحدة العثمانية, فلم يبقَ إلّا الثورة والتي أتاحت الحرب العالمية الأولى الظرف الملائمة لها [32].

تقييم الحركة العربية من نشوئها إلى قبيل الحرب العالمية الأولى:

باءت بالفشل معظم المحاولات التي أرادت تطبيق أي شكل من أشكال التوحد العربي، فقد خابت آمال رجال المؤتمر العربي الأول على ضوء تشدد موقف السلطة العثمانية، ونكثها لوعودها لهم.

كان هناك خلط بين الهوية الإسلامية للفكرة القومية والهوية العربية التقليدية, إذْ إنَّ المصريين كانوا أكثر ميلاً إلى الجانب الإسلامي، في حين كانت الكتابات في الشرق تميل إلى تبني الهوية العربية التقليدية، ويرجع ذلك إلى اختلاف ظروف الاحتلاف في المنطقتين, فقد كان المصريون يرون أن التمسك بالسلطنة من شأنه أن يقوي شوكتهم ضد الإنكليز, في حين كان العدو الأول بالنسبة للشرقيين هو السلطنة العثمانية.

كان الاهتمام منصباً على الدعوة لفكرة العروبة والتأكيد على الهوية السياسية للعرب ضد العثمانيين, وهو أمر كان يحتاج إلى تعميق الإحساس والشعور بالقومية العربية، ومن ثم لم يكن هناك اهتمام بالنواحي التفصيلية للوحدة أو إلى خطواتها الإجرائية, فلم تطرح تصورات للقوى والأساليب التي تحقق الوحدة, ولا تصور للمراحل التي تمر بها [33].

وظهور الاتجاه عن التصور الفيدرالي كشكل للوحدة، فكثيراً ما أشار الكواكبي إلى بعض التجارب الأوربية مثل المانيا، وكذلك تجربة الولايات المتّحدة الأمريكيّة التي أخذت بها، وإنها تُلائم تقريباً أحوال العرب، وربما كان تأكيد رجال المؤتمر

العربي الأول بالدعوة إلى اللامركزية أقرب إلى ذلك التصور الفيدرالي, وفي كلتا الحالتين لم تكن هناك نية لدى العرب للانفصال الكامل عن السلطنة العثمانية.

إنّ الفكر القومي العربي إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى لم يكن قد وصل بعدُ إلى التأصيل لأيدولوجية القومية العربية, أو لنقُلْ لم يصل إلى درجة أنّ العرب بذاتهم يشكلون أمّة واحدة لها مطالب وطموحات نابعة من تناقضاتها الموضوعية, سواء كانت لها جذور إسلامية أم غيره، ويستثنى من هذا التعميم "نجيب عازوري" فهو الوحيد الذي ذكر أن هناك أمة عربية واحدة تضم المسيحيين والمسلمين على السواء, وأنّ المشاكل الدينية ما هي إلّا مشاكل سياسية اصطناعية لقوى خارجية لها مصلحة فيها، أي إنه فصلَ بين القوى الدينية والقوى المدنية[34].

المبحث الثاني

الفكر القوميّ العربيّ ما بين الحربيْن العالميتيْن الأولى والثانية 1914- 1939م

عند نشوب الحرب العالمية الأولى، أُخِذَ القوميون العرب على حين غرّة وكان عليهم أن يختاروا إما تأييد الغرب أو مساندة العثمانيين, فقرر الهاشميون مساندة بريطانيا وفق شروط معينة، إلّا أن فريقاً آخر من القوميين العرب ذوي النزعات الإصلاحية – الإسلامية، قليلي العدد نسبياً غير أنهم واسِعوا النفوذ ارتابوا من الخطر المتمثل بالاحتلال الأنجلو– فرنسي، وقرروا مساندة الدولة العثمانية وكان في مقدمة هؤلاء شكيب أرسلان، الذي رأى أنّ انحلال الإمبراطورية العثمانية سيؤدي إلى خضوع العرب إلى إنكلترا وفرنسا [35]. وتُعد الثورةُ العربيّةُ الكُبرى بقيادة الشريف حسين بنْ علي عام 1916 ثمرة نضال الحركة العربية والتي أدت إلى تقديم أولى القرابين من أجلها، وقد قام الشريف بثورته هذه بعد مراسلات بينه وبين بريطانيا عن طريق سفيرهم في مصر مكماهون, وهي ما عرفت بمراسلات حسين – مكماهون, والتي وعدت بريطانيا فيها بإنشاء دولة عربية مستقلة، لكن نقض الحلفاء لوعودهم للعرب أدى إلى خيبة أمل لدى العرب الذين وجدوا أنفسهم في موقف صعب بعد مساندتهم لبريطانيا، وعلى الرغم من أن "محمد كرد علي" أحد القوميين العرب الذين كانوا من المؤيدين لاستقلال العرب عن الأتراك، لكنه خلال الحرب العالمية الأولى انحاز إلى جانب الأتراك، قد نشر في جريدته "الشرق" النص السري لاتفاقية سايكس بيكو التي قسمت أملاك الدولة العثمانية في الشرق ما بين بريطاني وفرنسا وذلك في 2 نوفمبر/ 1917, ويبدو أنّ البلاشفة في روسيا قد سرّبوا نصوص هذه المعاهدة إلى الأتراك، وقد أثار نشر هذه المعاهدة استياءً عاماً في صفوف القوميين العرب, إلّا أنهم كانوا غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم ضد البريطانيين [36].

وقد تميزت الفترة التي أعقبت الحرب العالميّة الأولى باليأس والقنوط وخيبة الأمل التي عقلها زعماء العرب بسبب الوعود التي قطعها الغرب على نفسه بأن يمنحهم الاستقلال, وهي وعود لسوء الطالع فسرها العرب تفسيراً حرفياً، وهكذا أصبح هناك حالة عدم ثقة بين العرب والغرب واتجهت مقاومة العرب صوب الغرب، الغرب الذي حررهم من تسلط الأتراك[37].

وهكذا أصبح على الحركات العربية في فترة ما بين الحربين، أن يتعاملوا مع الواقع الجديد وأن يعدلوا أهداف العروبة الجامعة وحصرها في كل إقليم على حدة, وأصبح لزاماً الاقتصار على حدود يرسمها الاستعمار, وعلى الرغم من وجود التضامن فقد توجب على حركات التحرر العربية أن توسط نفسها, وأن تقاتل على هدى خطوط رسمتها القوى الاستعمارية في كل إقليم شبيه بالدولة [38].

وقد أدى تقسيم العالم العربي دولاً صغيرة إلى ظهور نزاعات إقليمية مرتبطة بكل دولة من هذه الدول، وهذه النزعات أخذت تعرقل سير فكرة القومية العربية وتعمل على التباعد بين الشعوب التابعة لهذه الدول، وكان من آثار هذا ما عُرف في مصر (بالدعوة الفرعونية) باسم البحث العلمي والتاريخي والقومي, والتي رمت في الحقيقة إلى صرف نظر المصريين عن الفكر العربي القومي، وإفهامهم أنهم لا ينتمون إلى العرب والعروبة وإنما إلى الفراعنة أصحاب المجد والعظمة والحضارة والعمران الزاهر الذي كان أساس مدنيات العالم [39].

وشدّد أصحاب هذا التوجه على اصطناع لغة مصرية خاصة وأدب مصري خاص واستعمال اللغة الدارجة في التعلم والأدب والصحافة والتمثيل والتأليف والرسائل الحكومية، مستهدفين الابتعاد شيئاً فشيئاً عن ضوابط اللغة العربية الفصحى, فيزداد الانعزال عن العرب والعروبة, وفي ذات السياق بثّ الفرنسيون الدعوة الفينيقية في لبنان وقالوا : إنّ سكان لبنان جميعاً من أصول فينيقية لا من أصول عربية, وإنّ القومية العربية فكرة إسلامية تقضي بتسلط المسلمين على المسيحيين[40].

وقد نظم خليل مطران قصيدة (قلعة بعلبك) مخاطباً أهل الشام, إذ يقول:

أهـــل فينقيـا سلام عليكـم يـوم تفنـى بقيـة الأدهـار

لكـم الأرض خـالدين عليـها بـعظيـم الأعمـال والآثـار [41]

وفي سوريا نفسها التي احتضنت بواكير حركة العرب القومية, ظهرت الدعوة القومية السورية "السريانية" ممثَّلة بالحزب القومي السوري الذي دعا إلى اعتبار "المكان" بمثابة العنصر الأساس للقومية السورية, واستُبعد الدين عن عناصرها, بل واعتبر الفتح الإسلامي لسوريا فتحاً أجنبياً, وفي نفس الوقت أعتُبر "معاوية بن أبي سفيان" سوريّاً؛ لأنه عاش عشرين عاماً في سوريا[42].

لكن في الجهة الأخرى ظهرَ من يدافع عن القوميّة العربيّة, سواء كان في الشرق أم في المغرب العربييْن، ولعل الدعوة إلى وحدة العربي في العراق أكثر ظهوراً وأشدّ حماسةً وأوضحُ قصداً وعمقاً من الأقطار العربية الأخرى؛ وذلك لأنَّ عرب العراق كانوا أكثر احتكاكاً بالتيارات الطورانية وغيرها, ويُعد الشاعر عبد المحسن الكاظمي أول الداعين وأكثر الناظمين في الوحدة العربية بعد الرواد الأوائل, وهو على كثرته وانتشاره أتخذ لساناً للثورة العربية الكبرى, كما برز في العراق الشاعر جميل صدقي الزهاوي، الذي حذر العرب من الذين يتخذون من الدعوة إلى الوحدة العربية سبيلاً لأغراضهم ومأربهم، وقد نظم قصيدة أسماها "العراق في مصر", جاء فيها:

لقد جمعتنا وحدة عربية وأقرب منها بيننا وحدة الفكر[43]

وفي الغرب العربي نشأ الوعي العروبي دون صِدام مع الوعي الوطني، وهو أحد سمات القومية المغاربية، فالمغرب العربي عاش واستمر يعيش ككيان وطني مستقل منذ اندحار الرومان ودخول الفاتحين العرب المسلمين, والدول التي قامت فيه خلال مدة الأربعة عشر قرناً كانت قد أنشأتها أسر حاكمة مغربية وكان معظمها من أصول غير عربية "المرابطون، الموحدون", وحين سقط المغرب العربي في قبضة الاستعمار الأوربي لم تنشأ أيدولوجية قومية بين نخبة تدعو إلى ربط مصيره السيادي بالوحدة العربية؛ وذلك لأنّ هؤلاء لم يكونوا ينظرون إلى الوحدة إلّا بصفتها وحدة الكيان

المغربي، ولما كانت هذه الوحدة مفقودة بفعل الاحتلال الأجنبي (الفرنسي والإسباني) فقد أضحى استقلال الأوطان هو الحلّ الأوحد لهذا الوضع[44].

وقد برز في المغرب العربي عدداً من المفكرين القوميين, منهم: "عبد الحميد بن باديس 1889- 1940م" الذي آمن بالوحدة العربية باعتبار أنّ الأمة العربية تمتد من المحيط إلى الخليج وهي أمة واحدة, إلّا إنه لا يعتقد بنجاح وحدتها في ضوء ظروفها الراهنة, إذ ما زال كثير من الأقطار العربية تحت السيطرة الاستعمارية [45].

ومن المفكرين الآخرين في المغرب "علال الفاسي 1910- 1974م" الذي آمن بالوحدة وبالعروبة, إلّا أنه يربطها بالإسلام, فهو يقول: "إنّ حركتنا في المغرب تفهم القومية العربية على أساس الاستقلال وغرس روح الوحدة في النفوس والتضامن القومي بين الدول العربية والإسلامية"[46].

ويُعد "قسطنطين زريق 1909- 1996م" من أبرز المفكرين القوميين في هذه الفترة, وقد خالف زريق قسماً من القوميين الذين نادوا بالمحافظة على التقاليد والعادات والعقائد المتوارثة بالإعراض عن فلسفة الغرب المادية ؛ لأنّ هذه الفلسفة حسب رأيهم لا تورثنا إلّا الضعف, فهو يقول: "إنّ الوعي القومي الصحيح يتطلب منّا إذن أن نجمع بين الشخصية العربية المتكونة من محيط هذه البلاد الطبيعي وميراثها الاجتماعي والثقافي والحضارة الغربية المسيطرة على المجتمع الحديث"[47].

وزُريق عند تشخيصِهِ للأزمات العنيفة "السياسية والاقتصادية والفكرية" التي عمَّتْ البلدان العربية في ثلاثينيّات القرن الماضي, يَعدُّ "الأزمة الروحية أخطر هذه الأزمات وأعمقها جذراً؛ لأنّ الأزمة عند العرب هي أزمة النفس لا أزمة الجسد والمادة"[48]. وحلّل زريق أسباب النكسات والخسائر التي منيت بها الحركة القومية العربية، إذ توقف عند سببين: أولهما: تعرض الدعوة القومية للدعوة الاشتراكية فتغلب النزاع الطبقي على وحدة الأمة ولم يعد ممكناً "جمع الصف العربي", وثانيهما: هو عجز الدعوة القومية عن التحديث الذي يتيح "للولاء القومي أن يتغلب على الولاءات الأخرى وأن يصهرها في ولاء شامل"[49].

وتُعد عصبة العمل القومي التي شكلها عبد الرحمن الشهبندر في سوريا منتصف ثلاثينيات القرن المنصرم من أبرز الأحزاب ضمن الإطار القومي العربي، وقد دعتْ هذه العصبة البرجوازية الصغيرة إلى وحدةٍ عربيةٍ شاملةٍ وإلى سيادة العرب واستقلالهم المطلقيْن, وبالرغم من إعلانها عن عدم التقيد بمذهب من المذاهب الاقتصادية المعروفة إلّا بقدر ما فيه خير لمصلحة العرب, نراها تدعو إلى ضم رؤوس الأموال بالمشاريع الكبيرة, ويرى الشهبندر "إن تأليف دولة عربية مركزية ديمقراطية أمر بعيد التحقيق", فدعا إلى اتحاد عربي أو "جامعة عربية", مهاجماً السياسية الإقليمية ومطالباً تنظيم الشعوب العربية وتقريبها بعضها من بعض من دون ترك مجال لتظهر فيه ميزاته الخاصة[50]. ومن المفكرين السوريين في هذه المدة "زكي الأرسوزي المولود في 1899", وقد برز دوره عندما تصدى إلى لجنة الاستفتاء التي شكلتها عصبة الأمم بُعَيْد الحرب العالمية الأولى والتي أبت إلّا أن تسجلْ المسلمين بطوائفهم والمسيحيين بطوائفهم, إذ صاح منادياً "نحن عرب قبل أن نكون مسلمين أو مسيحيين، فلنتقدم لنعلن قوميتنا العربية وحسب"، وقد أصدر في سنة 1942 كتابه الأول "العبقرية العربية في لسانها", ويروي سلمان العيسى أنّ الأرسوزي هو أول من أعطى اللفظ الرسمي لكلمة "البعث" في أوائل سنة 1940 وهو حسب رواية العيسى أسس في شتاء 1940 حزباً باسم "البعث العربي" وكانت أول مبادئه "العرب أمة واحدة .... الوطن العربي وحدة واحدة لا تتجزأ..."[51].

ويعتبر بعضهم الفكر الذي جاء به "ساطع الحصري 1882- 1969م" بمنزلة أبجدية للعمل القومي، فقد حاول ساطع الحصري أن يؤكد وجود أمة عربية واحدة عن طريق مفهوم الأمة ومفهوم القومية جملة, وبيان عناصره عن طريق استنطاق التجارب العالمية، وعن طريق تحليل الوجود العربي, كما يصل في النهاية إلى تحديد مقومات القومية العربية الأساسية "اللغة, والتاريخ بوجه خاص", وكذلك أثبتَ وجود "أمّة عربية واحدة" توافرت فيها مقوّمات وحدتها بأكملِ وجه, ولم يحاول الحصري في كتاباته أن يبحث عن الطرق المؤدية لتحقيق الوحدة العربية أو في مقومات النضال اللازم لتحقيقها أو في المضمون الاجتماعي والسياسي والمؤسسي لتلك الوحدة, ويرجع ذلك إلى سبب أساسي وهو أنه كان مفكراً قبل أن يكون رجل سياسة[52].

وفي منتصف ثلاثينيات القرن المنصرم برزت في العراق "جمعية الجوال العربي" التي أسّسها بعض مدرسي دار المعلمين الابتدائية في بغداد, أمثال: متي عقراوي، وخالد الهاشمي, ودرويش المقدادي, وأكرم زعيتر, وفريد زين الدين، وقد حددت الجمعية أهدافها في منهاجها التي أصدرته في 13 حزيران 1935 بالقول : "هذه حركتنا حركة البعث ويقظة اندفاع وجهاد, تحمل على جناحيها خير ما تحمل حركة شريفة مؤمنة بالحق, واثقة بالعدل, مطمئنة إلى الفوز، لا عدوان فيها على أحد سوى أننا نريد أن ننال حقنا وحريتنا ونأخذ مركزنا في العالم على أساس احترام الحقوق بين الأمم" [53].

وواضح المنهج القومي في أن القومية تعترف بحق التملك الفردي، لكنها تقرر أنه حق غير مطلق بل هو مقيد بمصلحة الأمة, بحيث إن الدولة القومية العربية تنظّم ذلك الحق وتحدّد مداه وكيفية ممارسته؛ منعاً للمظالم والمساوئ الاقتصاديّة التي قد تقع فيها بسبب التضخم والتمركز المالي والاحتكار الفعلي، أو التي تكون بطبيعتها قابلة للمضاربة والاستغلال في المشروعات الصناعية الكبرى [54].

وقد تميزت الحركة القوميّة العربيّة ما بين الحربيْن العالميتيْن بالميزات التالية:

1- رفض الأساس الديني للفكرة القومية العربية، إذ صاحبَ الفِكرُ القوميُّ بُعيد الحرب العالميّة الأُولى نزعة علمانية تهدف إلى فصل الدين عن الدولة أو فصل الاعتبارات الدنيوية عن الاعتبارات الدينية.

2- التركيز الشديد على عامل المبررات وبالذات التاريخية، وهنا كانت العوامل التاريخية لا تتعلق فقط بتجارب الماضي المشتركة وإنما تشمل أيضاً ما أرتبط بالتراث العربي من لغة وآلام مشتركة وصور قديمة للوحدة.

3- المضمون الاجتماعي يكاد يكون مختفياً، ولم يكن هناك أدنى اهتمام به, ويرجع ذلك إلى أنّ النخب التي قادت الفكرة القومية حتّى الحرب العالميّة الثانية كانت إمّا مِن كبار المُلّاك أو من أبناء البرجوازية العربية، ولم يكن من صالحها أن تطرح مضموناً تقدمياً أو ثورياً لقضية التغيير الاجتماعي, أو أنْ تربط بين هذه القضية وقضية القومية العربية.

وبرغم تصاعد الاتجاه بالتأكيد على وجود القومية العربية فإنّ أحداً لم يقدّم تصوراً علمياً لتحقيقها، فقد نادوا بالدولة العربية الواحدة دون شرح الطرق الكفيل بالوصول إليها[55].

المبحث الثالث

منهج الفكر الناصري وأثره

عند اندلاع الحرب العالميّة الثانية 1939 كان العداء ضد بريطانيا في الوطن العربي قد وصل مداه؛ لأنها عرقلت استقلال هذه الشعوب ولم تبر بوعدها لهم, على الرغم من كل الخدمات التي قدّمها العرب لهم خلال الحرب العالميّة الأُولى والتي من أبرزها الثورة العربية الكبرى ضد الأتراك عام 1916م، وقد فكرت بريطانيا في وسيلة لتخدير هذه الروح الوطنية العربية, فعملت على الترويج إلى فكرة إيجاد جامعة بين الدول العربية على أساس من التعاون السياسي والاقتصادي والثقافي حتى تتمكن بريطانيا من لمّ شمل كافّة البلدان العربية تحت مظلة هذه الجامعة, لا من باب تحقيق الوحدة العربية فحسب, بل من أجل سهولة الإشراف على هذه الدول وربطها بعجلة السياسة البريطانية عن طريق الحكومات الاستبدادية الرجعية في هذه البلاد[56].

وفعلاً فقد انتهى الأمر إلى قيام الجامعة العربية في 22 آذار 1945 ومقرها القاهرة, وقد رحبت الشعوب العربية بهذه الجامعة, فقد كان هدفها هو تحقيق الوحدة الشاملة وتحقيق الأماني الوطنية القومية، وهو عكس وجهة النظر البريطانية الهادفة إلى إحكام قبضتها على البلاد العربية عن طريق حكامها [57]. وقد تميزت حركة القوميّين العرب بُعيْد الحرب العالميّة الثانية بالنّمو المطرد للتيار الناصري بعد ثوْرة 23 تموز/ يوليو 1952, فالناصرية تُعدّ أول تطبيقٍ عمليٍّ لفكر البعث دون أن تنتسب للبعث، وأستطاع جمال عبد الناصر 1908-1970 بشخصيته الفذة وقدرته على تحريك الجماهير وبزوغه في أكبر الأقطار العربية وأهمها, أن يترجم جانباً كبيراً منه إلى عمل، حيث استطاع أنْ يعبّئ الأمة العربية من أجل مناهضة الاستعمار ومن أجل التحرر من التبعية وتحقيق الكيان الذاتي، وحقق أول تجربة اشتراكية عربية في مصر, ومن ثَمّ في "الجمهوريّة العربيّة المتحدة 1958- 1961", لكن ما يُعاب عليه هو عوزه للإطار النظري لهذه الاشتراكية، ومن هنا انتهج في تحقيقها نهج التجربة والخطأ [58].

ولم يكن لدى الضباط المصريين الذين استولوا على السلطة في مصر والذي برز من بينهم "جمال عبد الناصر" بسرعة على إنه زعيم لا ينازعه أحد, في بادئ الأمر إلّا برنامج محدود، كما لم تكن لديهم أية أيدولوجية مشتركة خارج الدعوة إلى إحلال المصلحة القومية فوق الاعتبارات الحزبية والفئوية، وعاطفة تضامنية مع جماهير الفلاحين الذين كان معظمهم "أي الضباط" وليس كلهم ينتمون إليهم, إلا أنهم اكتسبوا بالتدريج أيديولوجية متميزة يمكن مطابقتها بوجه عام مع شخصية عبد الناصر, وكانت هذه الأيديولوجية تشتمل على عدد من العناصر التي كان لها وقع انفعالي كبير على تحريك الرأي العام [59].

وقد اعتمد عبد الناصر في برنامجه الإصلاحي الاجتماعي على نظام خاص هو "الاشتراكية العربية" وهو نظام يقع منتصف الطريق, ما بين الماركسيّة التي بشّرتْ بصراع الطبقات التي تملك وسائل الإنتاج, وبين الاشتراكية العربية؛ لذا كان من المتوقع من المجتمع بأكمله أن يتحد حول حكومة تدافع عن مصلحة الجميع, وقد أدرجت هذه الفكرة في "الميثاق الوطني" الذي نشر سنة 1962, إذ جاء فيه "إن الثورة هي الوسيلة الوحيدة أمام الأمة العربية لكي تتخلص من الروابط التي تثقل كاهلها ومن العواقب التي تنوء بأكتافها، وهي الوسيلة الوحيدة لتدارك التخلف المفروض على الأمة العربية, هذا التخلف الذي كان نتيجة طبيعية للقمع والاستغلال..., إن مراحل طويلة من الآلام الممزوجة بالآمال قد بلورت في نهاية الحساب أهداف الكفاح العربي، وهذه الأهداف التي تعكس بكل أمانة الوجدان الوطني هي: الحرية- الاشتراكية – الوحدة، ونحن نفهم من كلمة الحرية في الوقت الراهن حرية الوطن والمواطن, والاشتراكية صارت وسيلة وغاية، إنها الكفاح والعدل، أما الطريق إلى الوحدة فهو الدعوة الشعبية إلى إعادة النظام الطبيعي للأشياء, أي الأمة الواحدة" [60].

وقد ظهر الاتجاه العروبي لدى عبد الناصر منذ الأيام الأولى للثورة, إذ يقول: "ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء، لا ندرك بها مكاناً على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان، لا يمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا، وإنّ هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تأريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها، حقيقة وفعلاً وليس مجرد كلام"[61].

وكردّ فعل طبيعي لذلك الشعور الفياض وإيمان واسع وعميق بالقوميّة العربيّة, حصلت الوحدة بين مصر وسوريا, وفكرة الوحدة بين مصر وسوريا بدأت بشكل جدي عقب إنشاء حلف بغداد في عام 1955 الذي ضم العراق وتركيا ودولاً من حلف الأطلنطي، حيث عقدت سوريا ومصر الميثاق العسكري بينهما والذي نص على أنّ كل اعتداء على أحد منهما يعتبر موجهاً ضدّهما معاً [62]. وعندما أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس سنة 1956 لغرض إكمال مشروع بناء السد العالي بعد رفض أمريكا وبريطانيا تمويل هذا المشروع، اتخذت بريطانيا وفرنسا من الإعلان مبرراً للعودة إلى المنطقة, فأرسلت أساطيلها وقواتها لاحتلال مصر مرة أخرى، أما إسرائيل فكشفت عن نواياها الحقيقية من اشتراكها في العدوان حين أعلن بن جوريون عن "استعادة سيناء" وضمّها لإسرائيل باعتبارها أرضاً إسرائيلية [63].

وقد وقف الشعب العربي بجانب مصر، مما كان له أبلغ الأثر في تعزيز مفاهيم القومية العربية, سواء لدى شعب مصر أم لدى الشعوب العربية الأخرى, وحين نسف الجيش السوري أنابيب النفط شعرَ المواطن المصري أنه لم يكن وحده في المعركة وإنما يقف بجانبه الشعب العربي في سوريا وكافة البلاد العربية، وهو الذي مهّد لقيام الوحدة السوريّة المصريّة[64].

وجاء إعلان الوحدة في الأول من شهر شباط من عام 1958, وأُعلن عن انتخاب عبد الناصر رئيساً للجمهوريّة العربيّة المتحدة بعد استفتاء جرى في 21 شباط من العام نفسه, وبتحقّق الوحدة بين البلدين واجهت القومية العربية للمرة الأولى العقبات العمليّة والنظريّة التي تعترض تطبيق الحريّة والاشتراكيّة, الأمر الذي ولّد هزة عنيفة في الفكر القومي ما تزال آثارها تحرّك أقلام الكتاب وأنظار المنظرين ورجال السياسة, أما الانفصال الذي حدث في عام 1961 فقد كان بمثابة الكارثة التي عطلت المد العربي, ولا تزال تعطله حتى اليوم, وولد قلقاً أيديولوجياً, ووضعَ القومية العربية للمرة الأولى في موضع البحث والتساؤل, بل والتشكيك والاتهام في بعض الأحيان[65].

ومِنْ أهم أسباب فشل هذه الوحدة وحدوث الانفصال, هو عدم قدرة القيادة على تنظيم الجماهير وتعبئتها, وإنّ ذلك لا يتم عن طريق الدعاية التي تدغدغ العواطف, بل من خلال إنشاء التنظيمات الشعبية الديمقراطية للمواطنين, كما أنّ أحد معوقات الوحدة هو عدم قدرة النخبة السياسية على الارتفاع فوق خلافاتها التقليدية ومصالحها الضيقة وارتباكاتها الاجتماعية، ومن هذه الرابطة الوثيقة بين قضية الوحدة وقضية التغيير الاجتماعي[66].

أما الهزة العنيفة الأخرى التي تعرض لها الفكر العربي, فهي هزيمة حزيران سنة 1967 والتي أظهرت انتصار النخب المثقفة على النخب السياسية؛ بسبب فشل السياسيين في قيادة المعركة وحدهم, وذلك بعد أنْ قاموا إلى حد كبير بإسكات الأصوات المثقفة وأسكتوا معهم أصوات الجماهير الشعبية, ومن هنا عاد الفكر إلى الساحة متحدياً عنيداً, بل عنيفاً، وقام في شتى أرجاء الوطن العربي نقد لا يعرف الرحمة ولا يعرف الوجود العربي, كشفَ عن الكثير من جوانب الضعف، وبكثير من الجرأةِ والصدق[67].

لم ينجح نظام عبد الناصر -حتى في ذروته- في تجميع كل القوى السياسية التي تمثّل كل فئات الشعب المصري، فقد قامت حركته الجماهيرية "الاتحاد الاشتراكي العربي" بمهمّة إيصال مقاصد السلطة إلى السكان, أكثر مما سمحت لهم بالتعبير عن أمانيّهم ومقترحاتهم وشكواهم، واتهم جماعة الإخوان المسلمين الحكومة باستعمال لغة الإسلام لتغطية سياسة علمانية في أساسها, كما انتقد الماركسيون "الاشتراكية العربية" لأنها ليست الاشتراكية "العلمية" المبنية على الاعتراف بالفوارق والصراع بين الطبقات [68].

وقد أدى غياب عبد الناصر عن الساحة العربية بعد وفاته عام 1970 إلى انحراف في المسيرة الفكرية, فلقد أدى حُكم السادات 1918- 1981 المتذرع بالواقعية والموضوعية والتعقل, إلى ولادة فكر ظاهرهُ العقلانية, وباطنهُ التراجع والانكفاء والاستسلام, وتم توظيف شعارات البحث الموضوعي والدراسة العلمية في تيارات تؤدي في نهاية الأمر إلى التشكيك في الأيديولوجية العربية, بل وإنكارها, وبينما كان من الواجب دراسة الواقع العربي من أجل تغييره, جنحَ كثير من الباحثين إلى دراسته من أجل "تدوينه" أيْ تدوين تجزئته وتخلفه وعجزه [69].

أسباب فشل المشروع الوحدوي العربي[70]:

1- تخلف الفكر القومي كأحد أسباب تعثر العمل الوحدوي, فهو يعاني من انفصام بين الفكر والعمل, فالذين يفكرون لا يعملون والذين يعملون لا يفكرون.

2- عدم فهم مصادر قوى التوحيد السياسي.

3- عدم فهم لطبيعة مراحل التكامل السياسي.

4- عدم الالتزام بروح الديمقراطية الحقيقية خلال العمل الوحدويّ.

الخاتمة

بعد التدقيق والتمحيص في تأريخ تكوين الفكر القوميّ العربيّ, وكذلك في محتوى الأيديولوجيّة القومية العربية, نجد أنها هي من تتحمل كامل المسؤولية عن فشل النهضة العربيّة القوميّة, فكان رائد الفكر القومي العربي ساطع الحصري قد حدّد العوامل التي كونت الأمة العربية, بعاملَيْن هما: اللغة, والتاريخ المشترك وتوصّلَ إلى أنّ المشكلة الكبرى التي تواجه الأمة العربية هي التجزئة, كما واجهت ألمانيا من قبل في القرن التاسع عشر, حتى تمكنت من التغلب عليها بالوحدة وبجداول تدريجية.

- لم يتمكن الفكر القومي العربي أن يفسر لنا من خلال اللغة والتاريخ الوحدة الثقافية في الأمة, ولا وحدة العادات والتقاليد والمشاعر.

- اعتبر المفكرون القوميون أنّ اللغة والتاريخ هما المكونان الرئيسيان للأمة, ولكن ما هو دور الدين الإسلامي الذي جعل هذين العنصرين بهذا التأثير في الأمة العربية.

لقد تركّز دور الدين الإسلامي في خدمة اللغة العربية والحفاظ عليها من خلال المعجزة اللغوية الكبرى والمتمثلة بالقرآن الكريم, وجعله في موقع الصدارة بالنسبة لاهتمامات المسلمين, وإنّ الدين الإسلامي هو من صاغ هذين العاملين, ولا يمكن تفسير دورهما إلّا من خلال الدين الإسلامي الذي تجاهلهُ ساطع الحصري حيناً, وأنكره حيناً آخر.

الهوامش:

(1) عبد الفتاح العدوي، قراءات في الفكر القومي، الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000، ص356.
(2) مهدي السويج الخطيب، موقف الإسلام من القومية، النجف، مطبعة الآداب، 1962، ص9.
(3) عبد الفتاح العدوي، المصدر السابق، ص356.
(4) المصدر نفسه، ص357 .
(5) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، ج1، بيروت، دار الفكر الحديث، د. ت، ص5.
(6) المصدر نفسه، ص6.
(7) محمد عبد الله العربي، ديمقراطية القومية العربية بين الديمقراطية الشيوعية والديمقراطية الرأسمالية، الطبعة الثانية، القاهرة، 1959، ص26.
(8) العلمانيين: هم المؤمنين بالعلمانية وهي مفهوم سياسي ظهر إبان عصر النهضة الأوربية من سماته معارضة سيطرة الكنيسة على الدولة والهيمنة على المجتمع, ويُقصد بها فصل الدين عن الدولة وتسمى اللادينية ففلسفتها أن الدين هو شأن شخصي خاص بالإنسان فضلاً عن القضايا العقلية والنفسية. محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، دار التوجيه الإسلامي (بيروت – 1980)، ص12.
(9) ضياء الدين أحمد، حركة القومية العربية، قم، المركز الإسلامي للأبحاث السياسية، 1986، ص42.
(10) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين وأحسان عباس، الطبعة الثامنة، بيروت، دار العلم للملايين، 1987م، ص111.
(11) المصدر السابق نفسه، ص114.
(12) منير موسى، الفكر القومي في العصر الحديث، (بيروت – 1973)، دار الحقيقة، ص187.
(13) المصدر نفسه، ص193.
(14) عبد الله عبد الدائم، القومية العربية والنظام العالمي الجديد، بيروت، دار الآداب، د. ت، ص12.
(15) منير موسى، المصدر السابق، ص197.
(16) من أبرز أعضاء الجمعية: يعقوب صروف، فارس نمر باشا (صاحب المقطم)، إبراهيم اليازجي، شاهين مكاريوس، الياس حبالين، سليم عمون، إبراهيم الحوراني.
(17) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514- 1914، القاهرة، جامعة عين شمس، 1977، ص265.
(18) عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر 1840- 1876، القاهرة، دار الجيل للطباعة، 1962، ص224 .
(19) حازم زكي نسيبة، القومية العربية (فكرتها – نشأتها – تطورها)، ترجمة عبد اللطيف شرارة، الطبعة الثانية، بيروت، المكتبة الأهلية، 1962، ص80 .
(20) محمد أنيس، المصدر السابق، ص266.
(21) جورج أنطونيوس، المصدر السابق، ص277.
(22) المصدر نفسه، ص180.
(23) حازم زكي نسيبة ، المصدر السابق ، ص81 .
(24) جورج إنطونيوس ، المصدر السابق ، ص185 .
(25) محمد انيس ، المصدر السابق ، ص270 .
(26) جورج أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص188 .
(27) محمد أنيس ، المصدر السابق ، ص270 .
(28) من بين هؤلاء الضباط: نوري السعيد, وياسين الهاشمي, وجميل المدفعي, وعلي جودت الأيوبي, وصبيح نجيب, ويوسف العزاوي, وعلي رضا الغزالي ... إلخ .
(29) جورج أنطونيوس ، المصدر السابق ، ص188 .
(30) المصدر نفسه ، ص185 .
(31) محمد أنيس ، المصدر السابق ، ص271 .
(32) المصدر نفسه، ص272 .
(33) وليد قزيها وآخرون ، القومية العربية في الفكر والممارسة ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ص87.
(34) المصدر نفسه ، ص88 .
(35) وميض جمال نظمي، الجذور السياسية والفكرية والأجتماعية للحركة القومية العربية الأستقلالية في العراق، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984، ص106.

(36) المصدر نفسه ، ص107 ، عبد الله عبد الدائم ، المصدر السابق ، ص13 .
(37) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، بيروت ، دار النهار ، 1986، ص 141 .
(38) يوسف حوراني ، القومية العربية والوحدة في الفكر السياسي العربي ، ترجمة سمير كرم ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، د.ت، ص153 .
(39) درويش جندي ، القومية العربية في الأدب الحديث ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، 1962 ، ص26 .
(40) المصدر نفسه ، ص27 .
(41) ماهر حسين فهمي ، القومية العربية والشعر المعاصر ، العالم العربي ، د.ت ، ص 41 .
(42) مجموعة مؤلفين ، دارسات في القومية العربية والوحدة ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثانية ، 1992، ص33.
(43) يوسف عز الدين، الأشتراكية والقومية وأثرها في الأدب الحديث، القاهرة ، د.م ، 1976 ، ص139 .
(44) عبد الإله بلقزيز وآخرون، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية 1947- 1986، د. م، د. ت، ص17- 18.
(45) خيرية عبد الصاحب، الفكر القومي في المغرب العربي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1982، ص159.
(46) المصدر نفسه، ص 161- 163.
(47) عبد الله حنا، الأتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان 1920- 1945, دمشق، المطبعة التعاونية، 1973,ص47.
(48) المصدر نفسه، ص46.
(49) وليد خالد أحمد، صراع التيارات الفكرية في الوطن العربي 1798- 1999 رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية, 2002، ص109 .
(50) عبد الله حنا، المصدر السابق ، ص36- 41.
(51) المصدر نفسه ، ص 49- 51 .
(52) يوسف حوراني ، المصدر السابق ، ص15 .
(53) إبراهيم خليل أحمد، جعفر عباس حميدي، تاريخ العراق المعاصر، النجف، العالمية الحديثة، د. ت، ص89.
(54) المصدر نفسه ، ص90 .
(55) وليد قزيها ، المصدر السابق ، ص88- 92 .
(56) درويش جندي ، المصدر السابق ، ص28 .
(57) المصدر نفسه ،ص30 .
(58) عبد الله عبد الدائم ، المصدر السابق ، ص22 .
(59) البرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، تعريب أسعد صقر، الطبعة الأولى، دمشق، دار طلاس، 1997، ص476 .
(60) المصدر نفسه ، ص477- 478 .
(61) حسن صبحي، اليقظة العربية الكبرى يوليو 1952، الطبعة الأولى، القاهرة ، دار المعارف، 1956، ص190 .
(62) المصدر نفسه، ص192 .
(63) وليد قزيها، المصدر السابق، ص422.
(64) المصدر نفسه، ص423.
(65) عبد الله عبد الدائم، المصدر السابق، ص23 .
(66) وليد قزيها، المصدر السابق، ص420 .
(67) عبد الله عبد الدائم، المصدر السابق، ص24 .
(68) البرت حوراني، المصدر السابق، ص478 .
(69) عبد الله عبد الدائم، المصدر السابق، ص24.
(70) وليد قزيها، المصدر السابق، ص552.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أولاً– الكتب:

1) إبراهيم خليل أحمد، جعفر عباس حميدي، تاريخ العراق المعاصر، النجف العالمية الحديثة ، د.ت .
2) البرت حوراني ، تاريخ الشعوب العربية ، تعريب أسعد صقر، الطبعة الأولى، دمشق دار طلاس ، 1997 .
3) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين وإحسان عباس ، الطبعة الثامنة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1987 .

4) حازم زكي نسيبة ، القومية العربية (فكرتها – نشأتها – تطورها) ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، الطبعة الثانية، بيروت، المكتبة الأهلية، 1962 .
5) حسن صبحي ، اليقظة القومية الكبرى ، يوليو 1952 ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار المعارف ، 1965 .
6) خيرية عبد الصاحب ، الفكر القومي في المغرب العربي ، بغداد ، دار الحرية للطباعة، 1982.
7) دراسات في القومية العربية والوحدة ، مجموعة مؤلفين ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثانية ، 1992 .
8) درويش جندي ، القومية العربية في الأدب الحديث ، القاهرة مطبعة الرسالة ، 1962.
9) زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ، بيروت ، دار النهار ، 1968 .
10) ضياء الدين أحمد، حركة القومية العربية، قم، المركز الإسلامي للأبحاث السياسية، 1986.
11) عبد الإله بلقزيز وآخرون، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية 1947– 1986 ، د. م، د. ت.
12) عبد الفتاح العدوي ، قراءات في الفكر القومي، الطبعة الثانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2000 .
13) عبد الكريم غرايبة ، سوريا فيس القرن التاسع عشر 1840– 1876، القاهرة ، دار الجيل للطباعة ، 1962 .
14) عبد الله حنا، الاتجاهات الفكرية في سوريا ولبنان 1920– 1945، دمشق، المطبعة التعاونية ، 1973 .
15) عبد الله عبد الدائم ، القومية العربية والنظام العالمي الجديد ، بيروت ، دار الآداب ، د.ت.
16) ماهر حسين فهمي، القومية العربية والشعر المعاصر، القاهرة، العالم العربي، د.ت.
17) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514– 1914، القاهرة، جامعة عين شمس، 1977 .
18) محمد عبد الله العربي ، ديمقراطية القومية العربية بين الديمقراطية الشيوعية والديمقراطية الرأسمالية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1959.
19) منير موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث ، بيروت ، دار الحقيقة ، 1973.
20) مهدي السويج الخطيب، موقف الإسلام من القومية، النجف، مطبعة الآداب 1962.
21) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، ج1 ، بيروت، دار الفكر الحديث، د.ت.
22) وليد قزيها وآخرون، القومية العربية في الفكر والممارسة، الطبعة الثالثة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ، د.ت.
23) وميض جمال نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984.
24) يوسف حوراني، القومية العربية والوحدة في الفكر السياسي العربي، ترجمة سمير كرم، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، د. ت.
25) يوسف عز الدين، الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب الحديث، القاهرة ، د. م، 1976.

ثانياً– الرسائل والأطاريح:

1) وليد خالد أحمد ، صراع التيارات الفكرية في الوطن العربي 1798– 1999 ، رسالة ماجستير ، الجامعة المستنصرية ، 2002 .